المصطلح الصرفي في كتاب (معاني القرآن) للأخفش الأوسط (ت ٢١٥ هـ)

د. غادة غازي عبد المجيد كلية التربية / جامعة ديالى
د. سلام علي المهداوي كلية التربية / جامعة ديالى

مدخل :
معاني القرآن للأخفش الأوسط (٢١٥هـ) وعلم المصطلح

يُعدُّ كتاب (معاني القرآن) لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الملقب بـ(الاخفش) الأوسط كتاباً موسوعياً لا ينتمي إلى حقل لغوي معين ، بل له في كل حقلٍ يدٌ طولى، وهذا أمر استمده من مادة الكتاب العلمية ، وهي كلمات الله – جلّ وعلا – وآيات قرآنه المعجز ابتداءً من سورة الفاتحة وانتهاء بسورة الناس .

ومن يقف إزاء عمل معجز مثل القرآن الكريم لابد أن يكون متسلحاً بثقافة لغوية كبيرة إلى جانب معرفته بأصول الفقه الإسلامي وتشريعاته ، إذ تحمل آيات القرآن الكريم من الإعجاز اللغوي ما يجعل العلماء يجولون ويصولون في طياته ؛ ولذلك نجد الأخفش يتناول في كتابه المستويات اللغوية عموماً ، ابتداءً بتفسير دلالات الألفاظ ومعانيها ، مروراً بأصواتها ومخارجها ومن ثمّ أوزانها واشتقاقاتها ، وأخيراً تراكيب الجملة ودلالاتها البلاغية .

وعليه فإن الدرس الصرفي يمثّل جزءًا من الدراسات اللغوية في هذا الكتاب، وهذا الأمر يشير إليه محققه الدكتور فائز فارس بقوله : ((وعندما فسّر الأخفش القرآن الكريم ، نظر في مسائله الصرفية : لقد درس بناء الكلمة ، وأوزان الأسماء ، وبيّن المفرد والجمع ، وصيغة جمع الجمع ، وتناول التذكير والتأنيث ، وتصغير الأسماء وغيرها . وعنى بالأفعال : فبيّن أبنيتها ، وصرف ما صعب منها ، ونظر في أوزانها وفي معاني تلك الأوزان ، وقرن بين أوزان الأفعال وذكر ما في بعض الأفعال من الإعلال ، وغيرها))[١] .

وبعدها يصف المنهج الصرفي في (معاني القرآن) قائلاً : ((وفي دراسة الصرف لم أجد الأخفش افتراضاً وتأويلاً يبعدان من حد المنهاج الوصفي ، فهو في كتابه (معاني القرآن) يصرف الماضي إلى المضارع فإلى المصدر ، ويجمع المفرد أو يفرد الجمع ، قضاياه في أكثرها تقف عند حد الرصد والحشد للظواهر الصرفية))[٢] .

أما علم المصطلح ، فالمصطلحات – إن صح تعريفها[٣] – هي أدوات مشيرة إلى مفاتيح كل علم وألفاظه وعباراته ، وبقدر ما تكون المصطلحات مستقرة ومستقلة وواضحة ، فإن ذلك يدل على تطور العلم الذي تمثله تلك المصطلحات وتبلوره ونضوجه .

ومن هنا نجد تتبع الباحثين المحدثين في ميدان اللغة لمصطلحات اللغويين وتطورها ، ابتداءً من كتاب سيبويه (ت١٨٠هـ) ، ومروراً ببقية المؤلفات اللغوية عبر القرون المتعاقبة في التاريخ العربي الإسلامي ، لينتهي العديد من الباحثين إلى أن مصطلحات سيبويه لم تكن واضحة أو متبلورة ؛ لأن كتابه يُعدّ مرحلة أولى من مراحل التأليف اللغوي عموماً والتأليف النحوي خصوصاً ، وأن المصطلحات النحوية أخذت طريقها إلى التبلور والنضوج بعد عصر سيبويه ومن عاصره من النحويين[٤] .

وفي مرحلة متقدمة من البحث النحوي الحديث أثبت بعض[٥] الباحثين أن لسيبويه مصطلحات خاصة تمثل صورة النحو العربي في ذلك الوقت ، وأن الكتاب ليس خلواً منها ، وليست مصطلحاته بالغموض والارتباك الذي وُصفت به .

ومما تجدر الإشارة إليه أن عناية الباحثين تركزت على المصطلح النحوي ، ولم تظهر لهم عناية بالمصطلح الصرفي ، وعلم الصرف لا يقل أهمية عن علم النحو ، إذ يدرس الصرف جانباً مهماً من جوانب الكلمة العربية ؛ ولذلك اختار البحث دراسة المصطلح الصرفي دون النحوي ؛ لأن الأخير أعاد فيه الباحثون وزادوا .

أما اختيارنا لكتاب (معاني القرآن) للأخفش ، فله أسبابه ، ولعل أولى هذه الأسباب أن الكتاب يمثّل أحد المؤلفات اللغوية المتقدمة في ميدانها ، وهي بذلك تعكس التطور الفكري الذي وصلت إليه الدراسات اللغوية عموماً ، والدرس الصرفي خصوصاً ، إذ إن وصف مصطلحات الكتاب الصرفية يحقق لنا تلك الغاية ، وثاني الأسباب أن المادة اللغوية في الكتاب أتسمت بالإيجاز والاقتضاب مع كثافتها وغزارتها ، مما يسمح بقيام بحث علمي عليه ، فضلاً على ذلك فإن دراسة كلمات الله – جلّ وعلا – تُعد مادة خصبة لأي بحث علمي يتحرى الجدة والعمق ؛ وعليه وقع اختيارنا على هذا الكتاب لدراسة المصطلح الصرفي فيهِ ووصفه ، والوقوف – قدر الإمكان – على نتائج مفيدة في ميدانها العلمي ، فإن أصبنا فمن الله التوفيق ، وإن لم يكن فحسبنا المحاولة .

أولاً : وصف المصطلحات الصرفية في معاني القرآن للأخفش :

تقدم أن كتاب (معاني القرآن) لا ينتمي إلى حقل لغوي معين ، بل إنه احتضن في طياته دراسة المستويات اللغوية عموماً ، إلى جانب ما تطرق إليه الاخفش من العلوم الدينية والفقهية وما له صلة بالقراء والقراءات القرآنية ، وكل ما له علاقة بالنص القرآني سواءً أ من جهة التشريع الديني كان أو من جهة القيمة اللغوية للنص .

ولأن هذا التنويع المنهجي – إن صحّ التعبير – كان السمة التأليفية الغالبة في الكتاب ، فإن صورته انعكست على طريقة الاخفش في استعمال مصطلحاته الصرفية وذكرها ، فضلاً على ذلك ، فإن علم المصطلح لم يشهد – في زمن الاخفش – الاستقرار الذي شهده عند المتأخرين ؛ لأن كتاب المعاني يُعدّ من الجهود اللغوية المتقدمة في ميدان التأليف اللغوي ، مما كان له أثره الواضح في تعامل الاخفش مع المصطلح الصرفي على نحو ما سنجد فيما سيتقدم من البحث إن شاء الله .

ثانياً : منهج الاخفش في استعمال المصطلح الصرفي :

يمكن القول أن الخطوط المنهجية التي اتبعها الاخفش في ذكر مصطلحاته الصرفية لا تزيد على الثلاثة ، وهي على النحو الآتي :-

١- التصريح بالمصطلح الصرفي :

ورد في كتاب (معاني القرآن) عدد من المصطلحات التي ألتزم الاخفش التصريح بها ، فكانت واضحة ومستقرة في معظم المواضع التي وردت فيها من الكتاب ، ومن هذه المصطلحات نذكر :

أ- مصطلح (المصدر) :

يُعرّف (المصدر) في الاصطلاح بأنه: ((أسم الحدث الجاري على الفعل))[٦].

وقد ورد هذا المصطلح بهذا اللفظ عند الاخفش في مواضع عدة من كتابه ، وذلك قوله :((... كأنه قال : نسبّحك بسبحانك ، ولكن (سبحان) مصدر لا ينصرف))[٧] .

وقال في موضع أخر : ((... فجعل النبات المصدر ، والمصدر (الانبات) لأن هذا يدل على المعنى)) [٨] .

ويبدو هذا المصطلح أكثر استقرارًا ووضوحًا من غيره ، ولعل ذلك عائد إلى أنه مصطلح اتصف بالاستقرار والتبلور بدءًا من كتاب سيبويه ، يدلنا على ذلك نصوص الكتاب التي ورد فيها هذا المصطلح ، فمن ذلك قول سيبويه : ((فأما فَعَل يفعَلُ ومصدره فقتل يقتلُ قتلاً ، والاسم قاتل ...)) [٩] .

وقوله : ((وقد جاء بعض مصادر ما ذكرنا على فِعَال كما جاء على فُعُول ...))[١٠] .

أما ما تأخر من كتب صرفية[١١] ، فالاستقرار واضح وثابت في هذا المصطلح ، على نحو ما وجدناه عند سيبويه والاخفش .

ب- مصطلح (التصغير) :

ويُعرّف (التصغير) بأنه : ((تغيير بنية الكلمة لتقليل معناها أو تحقيره أو تقريب زمانه أو مكانه أو تعظيم شأنه أو تحبيبه أو تمليحه)) [١٢] .

وقد ظهر هذا المصطلح بهذا اللفظ وبهذا المعنى عند الاخفش أكثر وضوحاً وتبلوراً من مصطلح (المصدر) ، ولعله الأكثر استقراراً ونضجاً ، إذ نجد الاخفش يذكره

كلما مرّ موضوع (التصغير) ، ومن أمثلة ذلك قوله : ((البسملة أسم ، لأنك تقول إذا صغرته ((سُميّ))))[١٣] .

وقال أيضاً : ((وما كان من نحو الألفات اللواتي ليس معهن اللام في أول اسم ، وكانت لا تسقط في التصغير فهي مقطوعة))[١٤] .

وفي موضع أخر قال : ((فقطع الألف ؛ لأنه اسم تثبت الألف فيه في التصغير))[١٥] .

وشهد هذا المصطلح من الاستقرار ما جعل سيبويه يفرد له باباً خاصاً في كتابه، يحمل عنوان (هذا باب التصغير) ، جاء في أوله : ((أعلم أن التصغير إنما هو في الكلام على ثلاثة أمثلة : على فُعَيل ، وفُعَيْعِل ، وفُعَيْعيل)) [١٦] .

وعليه فإن هذا المصطلح من المصطلحات الثابتة التي وردت في معظم المصادر الصرفية القديمة فضلاً على المؤلفات الحديثة ، وقد استمد هذا المصطلح ثباته وتبلوره من كتاب سيبويه ودرجة النضج العالية التي اتصف بها فيهِ ، حتّى كان باباً صرفياً مستقلاً .

فمن البديهي إذن أن نجد هذا المصطلح في المصادر الصرفية التي تلت معاني الاخفش وتناولته بأسلوب مفصّل وشرح وافٍ لأوزانه ودلالاته [١٧] .

ج- مصطلح (الإعلال) :-

والإعلال في الاصطلاح يعني : دخول أحد حروف العلة (الألف والواو والياء) على الكلمة وما يرافق ذلك من تغيير تظهر على بنية الكلمة في قلب أو حذف أو تسكين[١٨] .

وقد ظهر هذا المصطلح بلفظه السالف ومعناه في معاني الأخفش ومن ذلك قوله : ((فـ(يستحيي) لغة أهل الحجاز بياءين وبنو تميم يقولون (يستحي) بياء واحدة، والأولى هي الأصل ؛ لأن ما كان من موضع لامه معتلاً ، لم يُعلُّوا عينه ، ألا ترى أنهم قالوا : حييتُ وحويتُ ، فلم تُعلّ العين ، ويقولون قُلْتُ وبِعْتُ ، فيعلّون العين لمّا لم تعتل اللام ...)) [١٩] .

وجاء في موضع أخر قوله : ((... لأنه من (آب يؤوب) وهي معتلة العين مثل : قُلْتَ تقولُ ...))[٢٠] .

وإذا عدنا إلى كتاب سيبويه وجدنا هذا المصطلح حاضراً ويشهد استقراراً لم يشهده غيره من المصطلحات ، فمن ذلك قوله : ((... فشركت هذه الحروف وَعَدَ ، كما شركت حَسِب يحسِب وأخواتها ضَرَبَ بضْرِبُ وجَلَسَ يجلِسُ . فلما كان هذا في غير المعتل كان في المعتل أقوى)) [٢١] .

وفي نظرة إلى الكتب الصرفية القديمة ، نجد مصطلح (الإعلال) أو (الاعتلال) مستقراً ومذكوراً في ضمن تناول الصرفيين لأبواب علم الصرف المختلفة ، وفيما يلي بعض النصوص الصرفية التي توضح ما سبق :

فقد جاء في المنصف لأبن جني (ت ٣٩٥هـ) : ((فمن هنا وجب تصحيح (يفْعُل) اسماً من (قام) ونَحوه ، ووجب إعلال (باب ، ودار))) [٢٢] .

وجاء عن ابن جني في (التصريف الملوكي) : ((من ذلك مضارع كل فعل اعتلت عينه ، نحو قولك يقوم ويبيع ويخاف ويهاب ...)) [٢٣] .

وورد هذا المصطلح عند ابن عصفور(ت٦٦٩هـ) في قوله : ((فإن كان المعتل منه أكثر من أصل واحد، فإنه لا يخلو من أن يكون معتل الفاء والعين ...))[٢٤].

ونجد الرضي الاستربادي (ت٦٨٦هـ) في شرحه للشافية يفرد باباً خاصاً بالإعلال ، ويعرف به ويذكر انواعه ، فيقول : ((اعلم أن لفظ الإعلال في اصطلاحهم مختص بتغيير حرف العلة : أي الألف والواو والياء ، بالقلب أو الحذف، أو الإسكان ، ولا يقال لتغيير الهمزة بأحد الثلاثة : إعلال ...))[٢٥].

وكذلك الحال عند ابن جماعة[٢٦] (ت٨٦٦هـ) في شرحه لمجموعة الشافية إذ عرّف الإعلال وذكر أنواعه في أسلوب يدل على تبلور هذا المصطلح ونضجه .

٢- التراوح بين التصريح وعدمه :

وهي سمة منهجية لوحظت في استعمال المصطلح الصرفي عند الاخفش فتارة نجده يذكر المصطلح بلفظه ومعناه ويصرِّح بهِ ، وتارة أخرى نجده يستغني بمعناه أو بأبنيته عن ذكره الصريح ، مع أنه ذكره بلفظه في موضع أخر ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عدم استقرار هذا المصطلح أو ذاك في فكر الاخفش الصرفي ، على أن ذلك لا يعني عدم معرفته بهذه المصطلحات ، وانما يدل على عدم شيوع استعمالها وشهرتها ، ولذلك تراوح وجودها في معاني الاخفش بين الذكر وعدمه ، على أن ذلك شمل عدداً من المصطلحات ، نذكر منها الآتي :-

أ- مصطلح (اسم الفاعل) :-

وهو وصف مشتق من الفعل المتصرف ، يدل على من قام بالفعل ، أي هو صفة للفاعل .

ومصطلح (اسم الفاعل) ورد عند الاخفش بهذا المعنى في قوله : ((... وتقول : هما الضاربان زيداً ، وهما الضاربا زيدٍ ، لأن الألف واللام لا تعاقبان التنوين في الاثنين والجميع ، فإذا أخرجت النون من الاثنين والجميع من أسماء الفاعلين أضفته ...)) [٢٧] .

وذكره في موضع أخر من كتابه فقال : ((... فشبّهوا (لات) بـ(ليس) ، واضمروا اسم الفاعل ، ولا تكون (لات) إلا مع حين))[٢٨].

ويظهر واضحاً من النص السابق ان الاخفش لم يرد بمصطلح (اسم الفاعل) صفة الفاعل ، وإنما أطلقه وأراد به اسم (لات) المحذوف والمقدّر بـ(لات الحين حينَ مناص) ، ويبدو أن العلة في ذلك أن الاخفش شبّه اسم (لات) المحذوف بفاعل الفعل مع بيان أنه ليس فاعلاً في الحقيقة ، وإنما يحمل صفة الفاعلية ، أي يتصف بالفاعلية ، فهو

فاعل في المعنى لا في اللفظ ، ولذلك أسماه الاخفش بـ(اسم الفاعل) هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نجد أن أطلاق المصطلح في هذا الموضع لا صلة له بالمعنى الصرفي لاسم الفاعل ، أي من جهة الاشتقاق ، ولكنه يقترب منه من جهة أن كليهما صفة للفاعل ، فهذا المصطلح وصف لمن قام بالفعل فـ(كاتب) صفة لمن (كتب) ، أما (لات) فهي تشبه (كتب) واسمها المحذوف لا يشبه فاعل (كتب) ؛ لأنه ليس فاعلاً على جهة الحقيقة ؛ لأن (لات) ليست فعلاً تاماً ، وإنما يشبه (كاتب)، إذ هو صفة للفاعل .

ولعل ما تقدم من تفسير يعلل استعمال الاخفش لمصطلح (اسم الفاعل) في هذا الموضع ، إذ ليس هذا الاستعمال من قبيل المصادفة أو اللاقصدية .

ولكنه – على ما يبدو – نابع من أدراك لوظيفة اسم (لات) المحذوف المعنوية واللفظية .

وفي مواضع أخرى من (معاني القرآن) نجد الاخفش لا يصرّح بمصطلح (اسم الفاعل) ، وإنما يكتفي بصيغته المشتقة من الفعل الثلاثي وغير الثلاثي ، ومن ذلك قوله : ((... وقال بعضهم : مداداً ومداً من (أمددناهم) ، وتقول : مدَّ النهر فهو مادٌّ ، وأمدّ الجرُحُ فهو مُمِدٌّ)) [٢٩] .

وقال في موضع أخر : ((... لأنك تقول : خَسَأْتُهُ َفخَسأ ، فهو خاسئٌ))[٣٠].

وفي نظرة إلى كتاب سيبويه ، نجد عدم الاستقرار في ذكر هذا المصطلح كما وجدناه عند الاخفش ، فتارة يصرّح سيبويه ، فيقول : ((هذا باب ما جرى في الاستفهام من أسماء الفاعلين والمفعولين مجرى الفعل كما يجري في غيره مجرى الفعل))[٣١] ، وفي موضع أخر يستعمل مصطلح (الفاعل) للتعبير عن (اسم الفاعل) ، فيقول : ((أعلم أن فاعلاً منها معتل مهموز العين ... وذلك قولهم : خائفٌ وبائعٌ))[٣٢].

وعلى الرغم من هذا الاضطراب ، إلا أننا نجد استعمال سيبويه للمصطلح أدق من استعمال الاخفش ، إذ – كما تقدم – استعمل الاخفش هذا المصطلح – في أحد المواضع – وأراد بهِ اسم (لات) ، في حين استعمله سيبويه في موضعه الصحيح ، مما يدل على أن فهم سيبويه لدلالة هذا المصطلح مختلف عن فهم الاخفش .

ويظهر تبلور هذا المصطلح واستقراره لدى من جاء بعد سيبويه والاخفش ، فيقول أبو علي الفارسي (ت٣٧٧هـ) : ((أعلم أن اسم الفاعل المشتق من أسماء العدد على معنيين ...))[٣٣].

وكذلك نجده عند ابن جني إذ يقول : ((إنما وجب همز عين اسم الفاعل إذا كان على وزن فاعل ، نحو : (قائم وبائع) ...))[٣٤].

وهكذا الأمر فيما تأخر من المؤلفات الصرفية التي استقر فيها استعمال هذا المصطلح ، وأصبح باباً صرفياً لا يكاد يخلو منه أحد هذه المؤلفات[٣٥] .

ب- مصطلح (النسب) :-

و(النسب) أسلوب لغوي معروف في العربية ، وهذا الأسلوب يعتمد في تحقيقه على إدخال (ياء النسب) المشددة المكسورة ما قبلها على الاسم ، فهذه الياء هي التي تحوّل الاسم من حالته الاعتيادية إلى حالة الاسم المنسوب[٣٦] .

وقد صرّح الاخفش بهذا المصطلح في موضع ولم يصرح به في موضع أخر، على الرغم من أنه لم يستعمل مصطلح (النسب) بهذا اللفظ ، وإنما استعمل مصطلح (ياء النسبة) ، ربَّما لأنه يرى أنه لولا هذه الياء لما حصلنا على هذا الاسلوب ، والذي يبدو أن لفظي (النسب) و(ياء النسبة) يترادفان عنده ، ولذلك يقول: ((وأما (الجوديِّ) [٣٧] ، فثقل لأنها ياء النسبة ، فكأنه أضيف إلى الجود ، كقولك : البصري والكوفي)) [٣٨].

إذ يلاحظ أنه قال (أضيف) ولم يقل (نُسِب) ، ولعله في ذلك يسير على خطى سيبويه في كتابه ، إذ إنه أطلق لفظة (الإضافة) على أسلوب (النسب) مع أنه كان يستعمل (النسب) أيضاً ، إذ قال : ((هذا باب الإضافة وهو باب النسبة)) [٣٩] .

وفي موضع أخر من (معاني القرآن) نجد الأخفش لا يستعمل مصطلح (ياء النسبة) ، وإنما يكتفي بوصف هذا الأسلوب وذلك في تعليقه على قوله تعالى : (كوكبٌ دُرِّيٌ)[٤٠] ، فيقول : ((إذا جعله من الدُّرِّ ، و (دِرِّيٌّ) من (دَرَأَ) همزها وجعلها (فِعِّيل) ...))[٤١] .

على أن مصطلح (النسب) استقر بهذا اللفظ فيما تلا (معاني القرآن) من مصادر صرفية ، ومن ذلك ما جاء في شرح الشافية : ((المنسوب الملحق بأخره ياء مشددة ليدل على نسبته إلى المجرد عنها ، وقياسه تاء التأنيث مطلقاً ...)) [٤٢] .

وكذلك الحال في المصادر[٤٣] الأخرى التي تناولت هذا الموضوع تناولاً نحوياً ، إذ هو من الموضوعات التي لها جانبان : أحدهما صرفي والأخر نحوي .

٣- عدم التصريح بالمصطلح الصرفي :-

وفضلاً على ما سبق من مصطلحات صرفية ، فقد وجدت عند الأخفش مصطلحات لم تثبت عنده ولم يستعملها ، ولعلها أكثر من المصطلحات التي ذكرهما واستعملها .

وغياب هذه المصطلحات لا يعني عدم معرفة الاخفش بها بقدر ما يعني عدم تقييدها في لفظة تعبّر عن الفكرة الصرفية المطلوبة ، ويدلنا على ذلك أن الاصطلاحات الصرفية غير المذكورة عنده كانت موجودة في كتابه ، وهو في تعبيره عنها كان يستغني عن المصطلح الصرفي أما ببنية الكلمة أو بوزنها ، أو بلفظة أخرى تقترب من الاصطلاح الصرفي المعروف لهذا الباب ، ومن ذلك نذكر الآتي :-

أ- الصفة المشبهة باسم الفاعل :

وقد كان هذا الباب الصرفي من أكثر الأبواب حضوراً في معاني الاخفش ، ولكنه لم يستعمل في تناوله لهذا الباب مصطلح (الصفة المشبهة) ، بل كان يستغني عنه

بذكر أوزان هذه الصفة ، من ذلك ما جاء في حديثهِ عن قوله تعالى: ﴿ في البأساء والضراء ﴾ [٤٤] : ((فبناه على (فعلاء) ، وليس له (أفعل) لأنه أسم)) [٤٥] .

وقال في موضع أخر : (((ذريّة ضعافاً) ، وكل سواء ؛ لأنك تقول ظريفٌ وظراف وظرفاء ، وهكذا جمع (فعيل))) [٤٦] .

وقال أيضاً : ((وأما قوله (حيران له أصحاب) فإن كلَّ (فَعْلان) له (فعلى) ، فإنه لا ينصرف في المعرفة ولا في النكرة)) [٤٧] .

على أن هذا المصطلح كان حاضراً في كتاب سيبويه ، بل جاء ذكره في باب مخصص للصفة المشبهة وأعمالها ، إذ قال : (هذا باب الصفة المشبهة بالفاعل فيما عملت فيه) ، وجاء فيه : ((ولم تقو أن تعمل عمل الفاعل لأنها ليست في معنى الفعل المضارع فإنما شُبّهت بالفاعل فيما عملت فيه ...))[٤٨] .

وواضح من النص أن سيبويه تناول (الصفة المشبهة) نحوياً ، وكان مدار حديثه على الشبه بينها وبين اسم الفاعل من جهة العمل النحوي، ولذلك نراه لا يستعمل هذا المصطلح حينما يتناوله صرفياً ، فيقول : ((هذا باب ما يبنى على أفعل)) [٤٩] ، ثم يفصّل فيه قائلاً : ((أما الألوان فإنها تبنى على أفعل ...)) [٥٠] .

ولو تأملنا هذا النص وما سبق من نص استعمل فيه سيبويه مصطلح (الصفة المشبهة) لأدركنا دقة سيبويه في الاستعمال والترك ، ولعرفنا أن هذا المصطلح مصطلح نحوي لا صرفي ، يدلنا على ذلك أن سيبويه استعمله حينما تكلم على الشبه بينها وبين اسم الفاعل من جهة الإعمال والإهمال ، إذ هي تشبه اسم الفاعل في عملها ؛ ولذلك سُميت بهذا الاسم ، أما من جهة الوزن والبنية – وهو الجانب الصرفي للموضوع – فلا شبه بينهما ، إذ لكل منهما أصول وقواعد خاصة بالوزن والبنية والصياغة ، فلا شبه بينهما صرفياً ؛ لذلك ترك سيبويه استعمال هذا المصطلح عندما تطرق إليه صرفياً .

وهذا الأمر قد يبرر ترك الاخفش لمصطلح (الصفة المشبهة) إذ إنه تناوله صرفياً ولم يتناوله نحوياً ، ولكن الأمر بدا أوضح عند سيبويه ؛ لأن مساحة كتابه الواسعة سمحت له بهذا التفصيل ، أما كتاب الاخفش فلم يكن لغوياً خالصاً – كما مر سابقاً - ، كما إنه اتصف بالاقتضاب لذلك لم تكن الصورة واضحة عنده كما هي عند سيبويه .

وربما لو تناول الاخفش هذا الموضوع نحوياً لاستعمل مصطلح (الصفة المشبهة) ؛ لأن مفاهيمه تكاد تقترب من مفاهيم سيبويه كما اتضح ذلك في صفحات البحث السابقة .

وإذا تركنا الاخفش وسيبويه لوجدنا أن مصطلح (الصفة المشبهة) استقر بهذا اللفظ في المؤلفات الصرفية المتأخرة [٥١] ، مما يعني انتقاله من الحقل النحوي إلى الحقل الصرفي ، بل أصبح هذا الباب الصرفي لا يعرف إلا بهذا المصطلح ، ليس لدى المتأخرين فحسب ، بل امتد الأمر إلى المحدثين ممن ألفوا كتباً صرفية [٥٢] .

ب- مصطلح (اسم المكان) :-

يُعرّف (اسم المكان) في الاصطلاح الصرفي بأنه : اسم مشتق من الفعل المتصرف يدل على مكان وقوع الحدث [٥٣] .

وقد ورد الكلام على هذا المشتق في كتاب (معاني القرآن) ، على أن الاخفش لم يستعمل مصطلح (اسم المكان) للتعبير عنه ، بل استعان بألفاظ أخرى ، ففي أحد نصوصه يستعمل لفظة (الموضع) للتعبير عن (اسم المكان) ، فيقول في صياغة (اسم المكان) من الفعل غير الثلاثي ؛ ((لأنها من (أدخل يُدخِل) ، والموضع من هذا مضموم الميم ؛ لأنه شُبّه ببنات الأربعة ((دحرج)) ونحوها ، ألا ترى أنك تقول : هذا مُدَحْرِجُنا ، فالميم إذا جاوز الفعل الثلاثة ، مضمومة ...)) [٥٤] .

وفي موضع أخر من كتابه يستعمل لفظة (المكان) بدلاً من (اسم المكان) ، فيقول في قوله تعالى ﴿أين المفرُّ﴾[٥٥] : ((أي الفرار ، وقال الشاعر :

يا لبكرٍ أنشِرُوا لي كُلَيْباً يا لبكرٍ أينَ أينَ الفرارُ

لأن كل مصدر يبنى هذا البناء ، فإنما يجعل (مَفْعَلاً) ، وإذا أراد المكان قال: المَفِر . وقد قرئت : أين المَفِرُّ ، لأن كل ما كان فعله على (يَفعِلُ) كَان المَفْعِلُ منه مكسوراً نحو : (المَضْرِب) إذا أردت المكان الذي يُضرَبُ فيه))[٥٦] .

وواضح من النص أن الأخفش قعّد لصياغة (اسم المكان) من الفعل الثلاثي المكسور العين في المضارع وذلك في معرض حديثه عن التمييز بين (المصدر الميمي) و(اسم المكان) ؛ لذلك نجده استعمل لفظة (المكان) قاصداً دلالة الوزن ، إذ اعتمد على المعنى في الوصول إلى الصياغة المناسبة لذلك المعنى ؛ ولذلك نجد عنايته بالجانب الدلالي تغلب على عنايته بالجانب الصرفي - على ما ظهر في النص المتقدم - .

على أن مصطلح (اسم المكان) كان حاضراً في كتاب سيبويه ، ولاسيما في المواضع التي قعّد فيها لصياغته ، ومن ذلك قوله : ((ويتعدى إلى ما اشتق من لفظه أسماً للمكان وإلى المكان ...)) [٥٧] ، وقوله في موضع أخر : ((وأما ما كان يفعل منه مفتوحاً ، فإن اسم المكان يكون مفتوحاً كما كان الفعل مفتوحاً . وذلك قولك : شَرِبَ يَشرَبُ . وتقول للمكان مَشْرَبَ)) [٥٨] .

وقد ثبت هذا المصطلح بلفظة (اسم المكان) في كتب المتأخرين والمحدثين الصرفية ، وعرف بأنه اسم لمكان وقوع الفعل[٥٩] .

وفضلاً على ما تقدم فإن (معاني القرآن) حوى مباحث صرفية أخرى من غير أن يعبّر عنها الاخفش بالاصطلاح الصرفي المتعارف عليه الذي ثبت – فيما بعد – في كتب الصرفيين ، من ذلك مثلاً : الميزان الصرفي وأفعل التفضيل وأوزان الفعل وغيرها .

على أن البحث اكتفى بهذه الأمثلة طالما أن الغاية كانت إظهار طبيعة المصطلح الصرفي في معاني الاخفش ولم تكن الغاية إحصاء هذه المصطلحات ؛ ولأن

الأمثلة المختارة استطاعت – إلى حد بعيد – خدمة هذه الغاية وتحقيقها فلم تكن هناك حاجة إلى الوقوف على جميع المصطلحات لأن الهدف كان الوصف لا الإحصاء .

وقد اظهر البحث أن الكتاب لم يكن خلواً من المصطلح الصرفي – كما قد يظهر للوهلة الأولى من القراءة الصرفية فيه – إلا أن هذا المصطلح كان يظهر حيناً ويختفي حينا ، ولعل ذلك عائد إلى سببين :

أولهما : أن علم الصرف في زمن الاخفش لم يكن مستقلاً عن بقية العلوم اللغوية لتكون له اصطلاحاته الخاصة ومباحثه المستقلة .

وثانيهما : طبيعة الكتاب نفسها من حيث المنهج والمادة العلمية ، إذ لم تكن الخطوط المنهجية واضحة فيه ، فكان الاخفش – في تفسير الآية القرآنية الكريمة – يمازج بين النحو والصرف والبلاغة وأحياناً القراءات القرآنية ، وقد يتطرق إلى ما للآية من جوانب شرعية وفقهية .

إلا أنه في خضم هذا المزيج المتجانس كانت شخصيته اللغوية هي الأقوى والأظهر على مستوى العلوم التي وقف عليها في كلامه على نصوص الذكر الحكيم، مما يجعل انتماء (معاني القرآن) إلى حقل الدراسات اللغوية أقوى من انتمائه إلى حقل الدراسات الفقهية والشرعية ، والله أعلم .

- هوامش البحث :

(١) معاني القرآن : ١٠٦/١ .
(٢) المصدر نفسه : ١٠٨/١ .
(٣) ولبيان مفهوم المصطلح بشكل أوسع ، ينظر : المصطلح النحوي ، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري ، عوض حمد القوزي : ٢٢ وما بعدها .

(٤) ينظر : سيبويه إمام النحاة ، علي النجدي ناصف : ١٦٦ ، وسيبويه حياته وكتابه ، أحمد أحمد بدوي :٣٠، وظاهرة الشذوذ في النحو العربي ، فتحي عبد الفتاح الدجني : ١٥١ .
(٥) وذلك في دراسة موسعة بهذا الشأن قدمها الباحث (صباح عبد الهادي) بعنوان (المصطلح النحوي في كتاب سيبويه / دراسة تحليلية) ، ماجستير .
(٦) بحث الطالب في علم العربية ، جرمانوس فرحات : ٢٧ .
(٧) معاني القرآن : ٥٧/١ .
(٨) نفسه : ٥١٠/٢ .
(٩) الكتاب ، سيبويه : ٥/٤ .
(١٠) نفسه : ٧/٤ .
(١١) ينظر : دقائق التصريف للقاسم بن محمد المؤدب : ٤٤ ، والمنصف لأبن جني : ١٩٨/١ ، وشرح المراح في التصريف للعيني : ٢٩ .
(١٢) المهذب في علم التصريف ، د. هاشم طه شلاش وآخرون : ٣٦٥ .
(١٣) معاني القرآن : ٣/١ .
(١٤) نفسه : ٥/١ .
(١٥) نفسه : ٥١/١ .
(١٦) الكتاب : ٤١٥/٣ .
(١٧) ينظر على سبيل المثال : التكملة ، أبو علي الفارسي : ٤٨٦ ، وشرح شافية ابن الجاحب ، رضي الدين الاستربادي : ١٨٩/١ ، ومجموعة الشافية : ٧٤/١ .
(١٨) ينظر : المهذب في علم التصريف : ٣١٢-٣١٣ .
(١٩) معاني القرآن : ٥٢/١ .
(٢٠) نفسه : ١٩٧/١ .
(٢١) الكتاب : ٥٤/٤ .
(٢٢) المنصف : ٢٧٥/١ .
(٢٣) التصريف الملوكي : ٧١ .
(٢٤) الممتع في التصريف : ٥٦٠/٢ .
(٢٥) شرح الشافية : ٦٦/٣-٦٧ .
(٢٦) ينظر : مجموعة الشافية : ٢٦٧/١ .
(٢٧) معاني القرآن : ٨٤/١ .
(٢٨) نفسه : ٤٥٣/٢ .
(٢٩) نفسه : ٧٤/١ .
(٣٠) نفسه : ٥٠٤/٢ .
(٣١) الكتاب : ١٠٨/١ .
(٣٢) نفسه : ٣٤٨/٤ .
(٣٣) التكملة : ٢٦٥ .
(٣٤) المنصف : ٢٨٠/١ ، وينظر : التصريف الملوكي : ٨٥ .
(٣٥) ينظر : شرح الشافية : ١٧٧/١، ومجموعة الشافية : ٦٠/١ ، وشرح المراح : ١٦٥.
(٣٦) ينظر : التطبيق الصرفي : عبده الراجحي : ١٣٤ .
(٣٧) هود : ٤٤ .
(٣٨) معاني القرآن : ٣٥٣/٢ .
(٣٩) الكتاب : ٣٣٥/٣ .

(٤٠) النور : ٣٥ .
(٤١) معاني القرآن : ٤٢٠/٢-٤٢١ .
(٤٢) شرح الشافية : ٤/٢ .
(٤٣) ينظر : شرح المفصل لأبن يعيش : ٣/٦ وما بعدها ، وأوضح المسالك لأبن هشام : ٢٧٥/٣ ، وشرح ابن عقيل : ١٥٢/٢ وما بعدها .
(٤٤) البقرة : ١٧٧ .
(٤٥) معاني القرآن : ١٥٧/١ .
(٤٦) نفسه : ١٨٥/١ .
(٤٧) نفسه : ٢٧٧/٢ .
(٤٨) الكتاب : ١٩٤/١ .
(٤٩) نفسه : ٢٥/٤ .
(٥٠) نفسه : ٢٥/٤ .
(٥١) ينظر : شرح الشافية : ١٤٣/١ ، ومجموعة الشافية : ٦٠/١ .
(٥٢) ينظر: المهذب في علم التصريف : ٢٧٧ ، والتطبيق الصرفي : ٧٦ .
(٥٣) ينظر : المهذب في علم التصريف : ٢٩٢ ، والتطبيق الصرفي : ٨٣ .
(٥٤) معاني القرآن : ٢٣٤/١ .
(٥٥) القيامة : ١٠ .
(٥٦) معاني القرآن : ٥١٧/٢ .
(٥٧) الكتاب : ٣٥/١ .
(٥٨) نفسه : ٨٩/٤ .
(٥٩) ينظر : شرح المراح : ١٣١ ، ومجموعة الشافية : ٧٠/١ ، والمهذب في علم التصريف : ٢٩٢ ، والتطبيق الصرفي : ٨٣ .

مصادر البحث :

(١) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، ابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الندوة الجديدة ، بيروت (د. ت) .
(٢) بحث المطالب في علم العربية ، جرمانوس فرحات ، مطبعة المرسلين اليسوعيين ، بيروت ، ١٩١٣ .

(٣) التصريف الملوكي ، ابن جني (ت٣٩٢هـ) ، تحقيق : محمد سعيد بن مصطفى النعسان ، تعليق : احمد الخاني ومحيي الدين الجراح ، ط٢ ، ١٩٧٠ .
(٤) التطبيق الصرفي ، د.عبده الراجحي ، دار المعرفة الجامعية ، ط٢ ، ٢٠٠٠م .
(٥) التكملة ، أبو علي الفارسي (ت٣٧٧هـ) ، تحقيق ودراسة : د. كاظم بحر المرجان ، ١٩٨١م .
(٦) دقائق التصريف ، القاسم بن محمد المؤدب (ق ٤هـ) ، تحقيق : د. احمد ناجي القيسي ود. حاتم الضامن ود. حسين تورال ، مطبعة المجمع العلمي العراقي : ١٩٨٧م .
(٧) سيبويه إمام النحاة، علي النجدي ناصف ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة : ١٩٥٣.
(٨) سيبويه حياته وكتابه ، د. أحمد أحمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر ، الفجالة ، الطبعة الثانية ، (د. ت) .
(٩) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت (د.ت) .
(١٠) شرح الشافية ، رضي الدين الاستربادي (ت٦٨٦هـ) ، تحقيق : محمد أنور الحسن ومحمد الزفزاف ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر العربي ، بيروت - لبنان ، ١٩٧٥م .
(١١) شرح المراح في التصريف ، بدر الدين محمد بن أحمد العيني (ت٨٥٥هـ) ، تحقيق : د.عبد الستار جواد ، مطبعة الرشيد ، (د. ت) .
(١٢) شرح المفصل ، ابن يعيش النحوي (ت٦٤٣هـ) ، عالم الكتب ، بيروت ، (د. ت) .
(١٣) ظاهرة الشذوذ في النحو العربي ، د. فتحي عبد الفتاح الدجني ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط١ ، ١٩٧٤م .
(١٤) الكتاب ، سيبويه (ت١٨٠هـ) تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٨٨م .
(١٥) مجموعة الشافية من علمي الصرف والخط ، تحتوي المجموعة على متن الشافية وشرحها للعلامة الجاربردي وحاشية الجاربردي لأبن جماعة ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٣١٠هـ .
(١٦) المصطلح النحوي في كتاب سيبويه (دراسة تحليلية) ، صباح عبد الهادي ، ماجستير ، كلية التربية ، الجامعة المستنصرية ، ٢٠٠٢م .
(١٧) المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري ، عوض حمد القوزي ، شركة الطباعة العربية ، السعودية ، ط١ ، ١٩٨١م .
(١٨) معاني القرآن ، الأخفش الأوسط (ت٢١٥هـ) ، تحقيق : د. فائز فارس ، دار البشير ، دار الأمل (د.ت) .

(١٩) الممتع في التصريف ، ابن عصفور الاشبيلي (ت٦٦٩هـ) ، تحقيق : د. فخر الدين قباوة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٧٨م .
(٢٠) المنصف ، شرح أبي الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٥هـ) تحقيق : إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين ، إدارة إحياء التراث القديم ، ط١ ، ١٩٥٤م .
(٢١) المهذب في علم التصريف ، د. هاشم طه شلاش ود. صلاح مهدي الفرطوسي و د. عبد الجليل عبيد حسين ، مطبعة التعليم العالي ، (د. ت) .